جرداء »(٤). ولكن اذا كان هؤلاء قد خدعوا عندما غادروا اوروبا ، فقد كان لهم اعين ليروا بها عندما وصلوا فلسطين. كان هناك بالطبع ملاريا وتراخوما، وبالطبع كانت الزراعة متخلفة بالمقارنة مع الزراعة في اوروبا في ذلك الحين ، وبالطبع كان الفلاحون فقراء وكان ملاك الاراضي يستغلون المستأجرين استغلالا فاحشا . ولكن البلاد كانت مسكونة وفيها شعب يقطنها . وقد زار الفيلسوف البريطاني آحاد هاعام فلسطين في العام ١٨٩١ — ١٨٩٢ وعاد ليكتب في احدى مقالاته : « اننا في الخارج معتادون على الاعتقاد ان فلسطين اليوم مقفرة ، وانها صحراء مجدبة لا يشتري احد فيها الارض عن طيب خاطر . ولكن ليس هذا هو الحال في الواقع ، اذ يصعب ان يجد المرء في طول البلاد وعرضها ارضا قابلة للزراعة لم تزرع بعد »(٥). وربما كان الصهيونيون الاشتراكيون قد غفلوا عن مقالة آحاد هاعام ، ولكن لم يكن باستطاعتهم ان يغفلوا عن حقيقة الوضع عندما أتوا الى فلسطين. الاشتراكية تعني أن يكون الاشتراكي أساسا الى جانب كل المضطهدين ضد مضطهديهم ، فيتوجب على الاشتراكي مثلا ان يقف الى جانب مستأجري الارض الفلسطينيين المضطهدين ضد ملاك الارض. ولكن بدلا من ذلك طور الصهيونيون الاشتراكيون الكيبوتز ، طوروا مجتمعا يستطيعون فيه أن يحسنوا وضعهم هم ، طوروا مجبرا (فيتو) بالمقلوب . « كان الكيبوتز جوابا على الاراضي القفر المعادية التي كانت تنتظر الخلاص على يد العمل اليهودي ، وجوابا على المطامح الاجتماعية للمستوطنين . لقد فشلت كل المحاولات السابقة لتحقيق الاستيطان اليهودي عبر الوسيلة الرأسمالية الكلاسيكية ، وسيلة الملكية الخاصة والعمل المأجور . وقد أجبرت الموجة الاولى من الرواد الصهيونيين ، التي أتت الى فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر تحدوها آمال كبيرة ، على التخلي عن النضال وانحط افرادها ليصبحوا مستخدمين للعمل العربي الرخيص او اتباعا للمحسنين اليهود في الخارج »(٦).

٤ M. Bar-Zohar : The Armed Prophet, London 1967, p. 16.

٥ Ahad Haam: Truth From Palestine, quoted in "Israc" No. 1, May 1969.

٦ — ليون ، المصدر السابق ، ص ٤ .

كانت هذه « الاشتراكية » تريد أن تخلق طبقة من العمال وطبقة من الفلاحين بصرف النظر عن الخلفية الاجتماعية لليهود الذين يجب أن يتحولوا ليصبحوا كذلك . « علينا ان نعترف ان داعنا القومي يكمن في تحلل الفرد اليهودي كانسان ، والافتقار الى الوعي القومي ليس الا نتيجة منطقية لهذا الوضع ... فلو نظرنا الى الشاب اليهودي ، لوجدنا انه شائخ روحيا برغم انه شاب عمرا — ولوجدنا أن روحه مثقلة بالاسى ... ان اليهودي في الشتات (المنفى) كاريكاتير للانسان الطبيعي العادي جسديا وعقليا ... ويجب ان يكون هدفنا التربوي خلق يهودي شاب متين العضلات قوي الارادة منضبط وطريقته في التفكير سليمة وطبيعية ... »(٧). هذا ما نجده في نشرة اصدرتها منظمة الشباب التابعة لحزب المابام الاشتراكي اليساري ...

وفي الكيبوتز كان كل شيء يقتسم بالتساوي، والمهام يتغير توزيعها على الاعضاء والقرارات تتخذ جماعيا ، ونما الكيبوتز ليصبح مزارا مثاليا للاشتراكيين الديمقراطيين والنقابيين الاوروبيين الغربيين . ولكن وعلى الرغم من ذلك لم يترك الكيبوتز اثرا متساويا على جميع من زاروه : « العاميات (الكومونات) جزر اشتراكية ، تمهد السبيل للاشتراكية التي ستأتي ... ان الرؤى السياسية التي أتى بها هؤلاء اليهود الشبان المتسامين أول مرة الى فلسطين ، والتي ما فتئوا يتعلقون بها ، رغم كل شيء ، ضرورية سيكولوجيا. فرؤيا الدولة اليهودية الاشتراكية التي سيعيش فيها اليهود والبروليتاريون العرب بسلام وحرية ضرورية لاخفاء الحقيقة ، حقيقة الاكواخ العربية القذرة بسكانها التعساء على بعد بضع مئات من الامتار خلف سياج كيبوتز مشمرهاعمق الشائك»(٨) — هذا هو الوصف الذي يعرضه كاتب بريطاني زار كيبوتز مشمر هاعمق في منتصف الثلاثينات . ولكن هذه « الاشتراكية » كانت اكثر جنونا حتى

٧ Origins, Ideology, Achievements of Hashomer Hatzair, 1949, quoted in "Israc" No. 2, March 1970.

٨ T.R. Feiwel: No Ease in Zion, London 1968, quoted in N. Barbour: Nisi Dominus, A Survey of the Palestine Controversy, London 1946.